﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه سؤالَ الفَتَيَين يوسُفَ عليه السلام عن تعبيرِ ما رَأياهُ، وكانَ في التَّعبيرِ بيانُ أنَّ أحَدَهُما سيُصلَبُ، ذكرَ اللهُ تعالى أنَّ يوسُفَ عليه السلام قدَّمَ بينَ يَدَي جوابِهِ بهذه المقدِّمةِ - ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ - اجتهادًا منه عليه السلام في أن يُدخِلَ الرَّجُلَ الإسلامَ لِئَلَّا يَموتَ على الكُفرِ[1].

اجتهادُ يوسُفَ عليه السلام في هِدايةِ الخَلقِ إلى الإسلامِ، باغتنامِ فرصةِ تعبيرِ المَنام

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾: الرّاءُ والزّايُ والقافُ تدُلُّ على العطاءِ[2]، فالرِّزقُ: العطاءُ، أو هو ما يُنتَفَعُ به[3]. والرِّزقُ عِندَ أهلِ السُّنّةِ يَشمَلُ الحلالَ والحرامَ، فالجميع يُسمَّى رزقًا؛ باعتبارِ حُصولِ النَّفعِ به، بصرفِ النَّظرِ عنِ التَّبعَةِ في الآخرةِ[4]. ومعنى قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ أي: لا يأتيكما طعامٌ تُعطَونَهُ في حالٍ منَ الأحوالِ إلَّا نبَّأتُكما بتأويلِهِ[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/455.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(4) الأشعريّ، الإبانة عن أصول الدِّيانة، ص: 32، والقحطانيّ، شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسّنّة، ص: 157.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/100.

2) ﴿مِلَّةَ﴾: الميمُ واللَّامُ تدلُّ تَصريفاتُها على تهيُّؤٍ أو تهيئةٍ بالامتدادِ لأجلِ الانتفاعِ والصَّلاحِ، ومنه قولُهم: طريقٌ مَليلٌ، وهو المُمتَدُّ المُهيَّأُ؛ وذلك لكونِه قد سُلِكَ حتَّى صارَ مَعلَمًا[1]. والمِلَّةُ: الطَّريقةُ المَسلوكَةُ[2]، وتُطلَقُ على الدّينِ، وتُجمَعُ على مِلَلٍ، مِثلُ: سِدرَةٍ وسَدَرٍ[3]، وحقيقةُ المِلَّةِ شرعًا أنَّها: اسمٌ جامعٌ لِما شَرَعَهُ اللهُ سُبحانَهُ لعبادِهِ على ألسنةِ أنبيائِهِ ورسُلِهِ[4]. وأمَّا المِلَّةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّـهِ﴾ فالمُرادُ بها مُطلَقُ الدّينِ الّذي يُتَدَيَّنُ به[5].

3) ﴿قَوْمٍ﴾: القافُ والواوُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على أمرَينِ؛ أحدُهما: جماعةُ ناسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزمٌ[6]. والقَومُ عند جمعٍ من علماء العربيَّةِ: اسمٌ يشمَلُ الرِّجالَ والنِّساءَ[7]. وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجالِ؛ إذ لفظُ (القَوم) في الأصل: مَصدَرٌ وُصِفَ به، ثُمَّ غُلِبَ على الرِّجالِ دونَ النِّساء؛ لكونِهم قوّامينَ عليهنَّ بالأمور الّتي ليسَ لهنَّ أن يقُمْنَ بها[8]، ويُؤيِّدُ هذا أنَّ لفظَ (القَوم) يُقابَلُ بلفظِ (النِّساءِ)، كما في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قولِ زُهيرٍ:

وما أَدري، وسَوفَ إِخَالُ أَدري *** أَقَومٌ آلُ حِصنٍ أم نِسَاءُ؟![9]

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ دخلَ النِّساءُ فيهِ ليس بمقتضى الوَضعِ، وإنَّما على سبيلِ التَّبَعِ؛ كما في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

4) ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: الهمزةُ والخاءُ والرّاءُ تدلُّ تصريفاتُها على ضدِّ التَّقدُّمِ[10]، يُقالُ: هذا الآخرُ وهذهِ الآخِرَةُ، وهما ضدُّ: المُتقدِّمِ والمُتقدِّمَةِ، ويُطلَقُ الآخرُ على الأبعدِ والغائبِ أيضًا[11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل - ململ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ملل).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ملل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ملل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/272.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (قوم).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (قوم).
(9) ديوان زهير بن أبي سُلمى، ص: 17.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(11) الخليل، العين: (أخر).

والآخرةُ: نَقيضُ الدُّنيا، وسُمِّيَت الدُّنيا؛ لأنَّها دَنَتْ؛ أي: قرُبَت، وتأخَّرَتِ الآخِرةُ[1]، وسُمِّيت الآخرةُ بذلكَ؛ لِكونِها آخرَ المَنازِلِ، فلا انتِقالَ عنها إلى دارٍ أُخرى[2]، وأمَّا انتِقالُ الخَلقِ إلى الجنَّةِ أو إلى النَّارِ؛ فإنَّ ذلكَ مِن أحوالِ الآخرةِ. ويَدخُلُ في لفظِ الآخرةِ في نحو قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كلُّ ما أخبرَ بهِ اللهُ تعالى ورسولُهُ ﷺ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنت هذه الآيةُ أنّ يوسُفَ عليه السلام قالَ لَهُما: لا يَأتيكُما أيُّها الفَتَيانِ في مَنامِكُما طَعامٌ تُرزقانِهِ إلَّا أخبرتُكُما بتفسيرِهِ في يَقظَتِكُما، وهذا الّذي أذكُرُ أنّي أعلَمُه مِن تعبيرِ الرُّؤى هو ممّا عَلَّمَني ربّي فَعَلِمتُهُ، إنّي بَرِئتُ مِن مِلَّةِ مَن لا يُصَدِّقُ باللهِ سُبحانَهُ ولا يُقِرُّ بوحدانيَّتِهِ، وهُم مع تَركِهِمُ الإيمانَ باللهِ تعالى واليومِ الآخِرِ لا يُقِرّونَ بالمَعادِ والبعثِ، ولا بثوابٍ ولا عقابٍ[4]. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مِن فِطنةِ يُوسُفَ عليه السلام أنّه لمَّا رأى فيهما قابليةً لدعوتِهِ - حيث ظنَّا فيه الظَّنَّ الحسنَ، وقالا له: إنّا نراك منَ المُحسِنين، وأتياهُ لأنْ يُعبِّرَ لهما رؤياهُما، فرآهُما مُتشوِّفَيْن لتعبيرِها عندَه - رأى ذلك فرصةً؛ فانتهزَها، فدعاهما إلى اللهِ تعالى قبلَ أن يُعبّرَ رُؤياهُما، وترشدُ إلى معجزةٍ ليوسفَ عليه السلام كمعجزةِ عيسى عليه السلام، حيثُ قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 49]؛ وذلك من أجل أن يعلمَ الفَتَيانِ صدقَه، فيمتثلا دعاءَه لهما إلى التّوحيد[5].

مِنَّةُ اللهِ ﷻ على يوسُفَ عليه السلام، بوحي الرّسالةِ، وهِداية العبادِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أخر).
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/370.
(3) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 3/145.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/100 - 101، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 239.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 410، ومخلوف، صفوة البيان، ص: 108.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفصلِ في مطلع الآية:

الـفـصـلُ في المَحاوراتِ حكمةٌ منَ الله الحكيمِ العليمِ

فُصِلَ قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ جوابًا عن كلامِهما، ففُصِّلَت هذهِ الجملةُ على طريقةِ حِكايةِ جُمَلِ التَّحاوُرِ[1].

براعةُ الإدماجِ في خطاب يوسفَ:

اغتنامُ يوسُفَ عليه السلام الفُرصةَ للدَّعوةِ إلى الله

في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ إدماجٌ؛ وذلك لأنَّهُما طَلَبا مِنهُ تعبيرَ الرُّؤيا، فأرادَ بجوابِهِ هذا أن يَنتهزَ فُرصةَ إقبالِهما عليهِ ومُلازمَةِ كلامِهما مَعَه؛ إذ هُما يَرتقبانِ تأويلَهُ رُؤياهُما، فأدمَجَ في ذلك دَعوتَهما إلى الدّين الصَّحيح، وهو توحيدُ الله سُبحانَهُ مع وَعدِهِ إيَّاهُما بأنَّه يُفسِّرُ لَهُما رُؤياهُما قريبًا[2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿قَالَ﴾:

تأويلُ الرّؤيا علمٌ يخدمُ الدّعوةَ، إذا عُرِّيَ من الادّعاء

دلَّ التّعبيرُ بـ ﴿قَالَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ على أنَّ يوسفَ عليه السلام يعرفُ أمرَ تعبيرِ الرّؤيا، وما هو أدقُّ من ذلك؛ ليقبلا نصحَه فيما هو أهمّ، وهو أمرُ توحيدِ الله وعبادتِهِ.

نكتةُ تقديمِ الهِدايةِ على تقديمِ تأويلِ الرّؤيا:

فطنةُ الدّاعيةِ باقترانِ إعلانِ الدّعوةِ إلى الله، بآيةٍ دالّةٍ على صدقِهِ

النّاظرُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ يجدُ أنّه تقدَّمَ على تأويلِ الرّؤيا، وهذا من فطنةِ الدّاعيةِ ليقترنَ إعلانُ الدّعوةِ إلى الله بآيةٍ دالّةٍ على صدقِ صاحبِها، ولو تمَّ التّأويلُ قبلَ إعلانِ الدّعوةِ، لَما ارتبطَت أذهانُ السّامعين بدعوتِهِ، بل تنصرفُ أذهانُهُم عن متابعةِ الكلامِ والإصغاءِ إليه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الدّافعَ في ذلك تقديمُ الأهمِّ على المُهمِّ؛ فأمرُ الدّعوةِ إلى الله أهمُّ من تأويلِ الرّؤيا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/270.

سرُّ التّعبير بالمضارع ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا﴾:

جاء التّعبيرُ بالمضارع، وكان الظّاهرُ أن يأتيَ بالماضي، بأن يقولَ لهما: (ما آتاكم)؛ لأنّه كان يُذكّرُهُم بالماضي، ويخبرُ عنه بقرينةِ (إلّا نبّأتُكُما)، ولكنّه عدلَ عنه إلى المضارع، ليفيدَ الاستمرارَ، وأنّ هذا الحالَ كان مُستمِرًّا في الماضي إلى الآن.

إفادةُ استمرار الحال، وأهمّيّتها في جلاء المعنى

دلالةُ خطابِ المُثَنّى:

في توجيهِ الخطابِ بأسلوب التَّثنيَةِ ﴿يَأۡتِيكُمَا﴾ و﴿نَبَّأۡتُكُمَا﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ إشعارٌ بأنَّ هذا خاصٌّ بالفَتَيَينِ دونَ غيرِهما مِن أهل السِّجنِ[1].

ويجوزُ أن لا يُرادَ به الاختصاصُ، وإنَّما كان الخطابُ بأسلوب التَّثنيَةِ لكونِ الكلامِ واقعًا جوابًا لكلامِهما.

مِن أوجُهِ العنايةِ بالسّائلِ تَخصيصُ الخطابِ به

نكتةُ تَخصيصِ الطَّعامِ بالذِّكرِ:

خُصَّ الطَّعامُ بالذِّكرِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ لعَراقتِهِ في ذلك بحسبِ الحالِ، مع ما فيهِ من مُراعاةِ حُسنِ التَّخلُّصِ إليه ممَّا استَعبراهُ مِنَ الرُّؤيَيَنِ، وفي إحداهُما ذِكرٌ للمَشروبِ، وفي الأُخرى ذِكرٌ للمأكولِ[2]. ويؤكّدُ هذا أنّ لفظَ الطّعام يُطلَقُ على المطعوم، ويُطلَقُ على المشروب أيضًا، كما في الآية: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: 249] والكلام على الماء.

حُسنُ التَّخلُّصِ في الانتقالِ مِن موضوعٍ لآخَرَ

سرُّ التّعبير بالطّعام دونَ الأكل:

آثرَ التّعبيرَ بالطّعام دون الأكلِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ﴾؛ لأنّ الطّعامَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُؤكَلُ؛ فيُقالُ: طَعِمَ طعمًا إذا أكلَ أو ذاقَ، ويُؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب:

الطّعامُ اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يُؤكَلُ، ويُطلَقُ على المَشروب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/276.

53]، فهذا يصدقُ على ما يتناولُ ويُطعمُ، ولذلك جعلَه القرآنُ الكريم بابًا واسعًا في الكفّارات تحتَ عنوان (إطعام الطّعام)، بخلاف الأكلِ، فقد لا يكونُ طعامًا إلّا إذا هُيِئَ للأكل.

سرُّ بناءِ الفعلِ ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ للمَفعولِ:

الفاعلُ معلومٌ والاختصارُ مطلوبٌ

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ لِما لَم يُسمَّ فاعِلُهُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾، ولم يقُلْ: يرزقُكما اللّه، مع أنَّ الرّزقَ مِنَ اللّه تعالى وحدَهُ، إمّا لأنّ الفاعلَ معلومٌ؛ فبنى الفعلَ لِما لم يُسمَّ فاعلُهُ، وذلك من باب الاختصارِ، أو لإرادةِ التَّعميم في الفاعلِ[1]؛ والمعنى: لا يأتيكُما طعامٌ أيًّا كان مُعطيهِ لَكُم، فإنَّ الرَّزقَ بمعنى مُطلَقِ العطاءِ يَصِحُّ إطلاقُهُ على غيرِ اللّه ﷻ، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النّساء: 8]، أو لأنّ الفتيَين كانا مُشركَيْن لا يريانِ الرّزقَ منَ اللّه تعالى وحدَه؛ فلَم يَرِدْ ﷺ أن يصطدمَ مع عقيدتِهما في أوّل الأمرِ؛ بل أرادَ التَّدرُّجَ بهما للوصول إلى غرضهِ في دعوتِهما إلى توحيد اللّه.

دلالةُ وَصفِ الطّعام بـ: ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾:

طعامُ الفتيَين معلومُ الوقت

جملةُ ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ في محلِّ رَفعٍ نعتٍ لـ ﴿طَعَامٞ﴾، وفي النَّعتِ بذلكَ: تصريحٌ بأنَّهُ طعامٌ معلومُ الوَقتِ، وليس ترقُّبًا لطعامٍ يُهدَى لهما، بحيثُ لا يَنضَبِطُ حُصولُهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنباءِ:

جلالةُ عِلمِ تعبيرِ الرُّؤى وسُمُوُّ مَنزِلَتِهِ

عُبِّرَ بالإنباءِ دونَ الإخبارِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ للإشعارِ بجلالةِ مَنزلَةِ التَّأويلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/270.

المُخبَرِ بِهِ، وأنَّ الإعلامَ بتفسيرِ الرُّؤى عظيمٌ جليلٌ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ معناهُ: (أخبَرتُكُما إخبارًا جليلًا عظيمًا)[1].

دلالةُ الاستثناءِ:

الإنباءُ عن تأويلِ الطَّعامِ، ببيانِ كُنهِهِ وكَيفيَّتِهِ وسائرِ أحوالِهِ

في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ؛ والمعنى: لا يَأتيكُما طعامٌ في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا نبَّأتُكما بِهِ ببَيانِ كُنهِهِ وكيفيَّتِه وسائرِ أحوالِهِ.

وعُمُومُ الأحوالِ ههنا عمومٌ عُرفيٌّ يناسبُ الغرضَ المَسوقَ إليه الكلامُ، وهو حالُ الإنباءِ بتأويلِ الرُّؤيا وحالُ عَدَمِهِ، فيكونُ المرادُ: (لا يأتي الطَّعامُ المُعتادُ إلّا في حالِ أنّي قد نَبَّأتُكما بتأويلِ رُؤياكُما)؛ أي: لا في حالِ عَدَمِهِ.[2].

بيانُ مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾:

قد يَجري ضميرُ المُفرَدِ مَجرَى اسمِ الإشارةِ، فيعودُ على مُتَعَدِّدٍ

الضَّميرُ في ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ راجعٌ إلى الطّعامِ؛ لكونِهِ أقربَ مذكورٍ، والمعنى: إلَّا نبَّأتُكُما بتأويلِ الطّعامِ، وبما يَؤولُ ويَرجِعُ إليه أمرُه[3]، وفي هذا دلالةٌ على إفادةِ العُمومِ في أمرِ الطّعامِ وما يتعلَّقُ به. وجَوَّزَ بعضُ أهلِ العِلمِ أن يَعودَ الضَّميرُ على ما قصَّاهُ مِنَ الرُّؤيَتَينِ، وهو أمرٌ مُتعَدِّدٌ، وإنَّما أُفرِدَ الضَّميرُ معه؛ لكونِهِ أُجرِيَ مجرى اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) على سبيلِ الاستعارةِ؛ إذِ اسمُ الإشارةِ قد يُشارُ بِهِ إلى مُتعدِّدٍ، والمعنى على هذا الوجهِ: (لا يَأتيكُما طعامٌ تُرزقانِهِ حَسَبَ عادَتِكُما إلّا أَخبَرتُكُما بتأويلِ ما قَصَصتُما عليَّ قَبلَ أن يأتِيَكُما ذلكَ الطَّعامُ المُوَقَّتُ)[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/271.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/431.

دلالةُ حذفِ الجارِّ (مِنْ):

البيانُ في جميعِ الوَقتِ

حُذِفَ حَرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾، فلمْ يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (إلّا نبَّأْتُكُما بتأويلِهِ مِنْ قَبل أن يأتِيَكُما)؛ لأنَّ مرادَهُ البَيانُ في جميعِ الوقتِ الّذي بينَه وبينَ الطّعامِ الّذي قبلَهُ[1]، ولو أُدخِلَت (من) لأفادَتِ انحصارَ البيانِ في بعضِ الوقتِ دُونَ بعضٍ.

سرُّ العُدولِ عن التأويلِ إلى الدّعوةِ:

إصلاحُ مُهِمّاتِ الدّينِ أولى مِن إصلاحِ مُهِمّاتِ الدُّنيا

عدلَ يوسفُ ﷺ عن تعبيرِ الرّؤيا للفتيَين إلى دعوتِهم للهداية من خلالِ قولِه: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وهو ليسَ جوابًا عمَّا سألَهُ الفَتيانِ؛ لأنَّهما إنَّما سَألا عَن تعبيرِ الرُّؤيا، ولكنّ يوسُفَ ﷺ عدلَ عَنِ التَّعبيرِ ابتداءً إلى ذِكرِ هذا الكلامِ لأوجُهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّه لمّا كان تعبيرُ إحدى الرُّؤيَتَينِ أنَّ صاحِبَها يُصلَبُ، ولا رَيبَ أنَّه إنْ سَمِعَ ذلكَ عَظُمَ كَربُهُ واشتَدَّ حُزنُهُ، فرأى يوسُفُ ﷺ أنَّ صلاحَ أمرِهِ يكونُ بتقديمِ ما يُؤثِّرُ مَعَه بعِلمِهِ وكلامِهِ.

ثانيها: أنَّ الفَتَيَينِ طلبوا إليه التَّعبيرَ، وهو عِلمٌ مبنِيٌّ في الغالبِ على الظَّنِّ، فأرادَ أن يُبَيِّنَ بهذا الكلامِ درجَتَهُ في العِلمِ، وأنَّها أعظَمُ ممّا ظنّوهُ فيه.

ثالثُها: أرادَ أن يُبيِّنَ أنَّ عِلمَهُ بالتَّعبيرِ ليسَ مُختصًّا بالرُّؤيَتَينِ اللَّتَينِ رَأَياها، وإنَّما هو أعمُّ مِن ذلك، ولذا قال: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

رابعُها: أنَّ يوسُفَ ﷺ لمَّا رأى إقبالَهُما عليهِ وقبولَهُما كلامَهُ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/455.

أورَدَ عليهما ما يُصلِحُ ديانَتَهُما؛ إذ إصلاحُ مُهمّاتِ الدّين أولى مِن إصلاحِ مُهمّاتِ الدُّنيا.

خامسُها: أنَّهُ لمّا كان التَّعبيرُ بيانَ أنَّ أَحَدَهُما سيُصلَبُ اجتهَدَ يوسُفُ ﷺ في أن يُدخِلَ الرَّجُلَ الإسلامَ؛ لِئلَّا يَموتَ على الكُفرِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالأفعال ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ و﴿يَأْتِيكُمَا﴾:

في التَّعبير بالأفعال ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ وَ﴿يَأْتِيكُمَا﴾ – في المَوضِعَين – في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ إيماءٌ إلى تَعدُّدِ إتيانِ الطّعامِ وتَجَدُّدِهِ، وتعدُّدِ الإخبارِ بالتَّأويلِ تبعًا لذلكَ، وذلك مناسِبٌ لسياقِ الجملةِ؛ إذ هي واردةٌ في مَقامِ إظهارِ فضلِ يوسُفَ ﷺ في فنونِ العِلمِ، بحيث يدخُلُ في ذلك تأويلُ الرُّؤى دخولًا أوَّليًّا[1].

إظهارُ فَضلِ يوسُفَ ﷺ في فُنونِ العِلمِ وفُروعِهِ

سرُّ التّعبيرِ بالتّأويل في: ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ التّأويل في أمر الرّؤيا مع أنّ حقيقتَهُ في المشهورِ تفسيرُ الألفاظِ المُرادِ منها خلافُ الظّاهرِ ببيانِ المُرادِ بطريق الاستعارةِ؛ فإنّ ذلك يشبهُ تفسيرَ المُشكَلِ، أو أنّه بالنّسبة للطّعامِ المُبهَمِ بمَنزلةِ التّأويلِ بالنّسبة إلى ما رُؤِيَ في المَنام، وهذا على سبيل الاستعارة[2].

التّعبيرُ بالنّسبة للطّعامِ المُبهَمِ، بمَنزلةِ التّأويلِ بالنّسبة إلى ما رُؤِيَ في المَنام

وجهُ تخصيصِ الطّعامِ بالتّأويل:

خصّصَ سيّدُنا يوسفُ تأويلَ الطعّام لِيضعَهما على نفس الاتّجاه في التّأويل، حيث ذكرَ تأويلَ الطّعام لهما قبلَ أن يأتيَهما، ومعلومٌ أنّ الطّعامَ هو موضوعُ رؤيا كلٍّ منهما؛ فتخصيصُهُ بالتّأويل ليسَ للحصرِ، ولكنّه جاء لِمُقتضَى الحالِ من خلال الأحاديثِ الدّائرةِ بينَهم.

حكمةُ يوسفَ ﷺ في التّمهيد للتّعبير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/276.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/431.

علَّةُ الفصلِ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾:

شبهُ كمالِ الاتِّصالِ في المعنى

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ استِئنافًا بيانيًّا، إذ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّه لمّا وصفَ يوسُفُ ﷺ نفسَهُ بالعِلمِ؛ أورَثَ ذلك في نَفسِ السّامعِ سؤالًا عنِ الطَّريقةِ الّتي حَصَلَ بها على هذا العِلمُ، فكأنَّ السّامعَ قالَ: مَنْ علَّمكَ هذا؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[1].

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾:

عَظَمَةُ علمِ التّعبيرِ، وعُلُوُّ مَنزِلَتِهِ، وجليلُ شَرَفِهِ

جاءَ التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، وهو راجعٌ إلى التَّأويلِ والإخبارِ بالمُغيَّباتِ؛ للإيماءِ إلى عظمةِ علمِ التَّعبيرِ، وعُلوِّ درجَتِهِ، وبُعدِ مَنزلَتِهِ[2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ):

الإيماءُ إلى غزارةِ علمِ يوسُفَ ﷺ وتواضعِه

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في ﴿مِمَّا﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ والمعنى: أنَّ هذا العِلمَ العظيمَ، وهو عِلمُ التَّعبيرِ، بعضٌ مِنَ الّذي علَّمنيهِ ربّي، ففي هذا إيماءٌ إلى غَزارَةِ علمِ يوسفَ ﷺ[3]. وفيه إشارةٌ إلى نعمِهِ الّتي لا تُحصى، فلم يقفِ الأمرُ عند الإنباءِ بما يؤولُ إليه الطّعامُ الّذي يرزقانه؛ بل يمتدُّ فيشمَلَ تعبيرَ الرّؤى، وهو مَحلُّ اهتمامِ الفتيَين.

وفيه إشارةٌ إلى ما حباهُ اللهُ تعالى منَ العلومِ المُتعلِّقة بأمورِ الدّنيا والدِّين أخذًا من قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿عَلَّمَنِي﴾:

مَن طلبَ العلمَ اتّخذَ لتحصيلِهِ الأسبابَ

عبّرَ بالفعلِ الماضي ﴿عَلَّمَنِي﴾؛ ليدلِّلَ على تحقُّقِ تعليمِ اللهِ له،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/271.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.

وفي هذا إشارةٌ إلى لفتِ انتباهِ الفتيَين، ومَن معَهم إلى السّعي، في تحصيل أسبابِ هذا العلم.

سِرُّ التَّعبير بالرّبوبيّة:

تضمُّنه لمعنى الإنعام الدّائم عليه

عُبِّرَ باسم الله (الرَّبِّ) في قولِ الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾؛ لدلالتِهِ على الإحسانِ؛ والمعنى: إنَّ الرَّبَّ الّذي أوجَدَني وربّاني بِنِعَمِه، وأحسنَ إليَّ، هو الّذي عَلَّمَني ذلكَ، ولم أُقْلَهُ عَن تنجيمٍ أو كِهانَةٍ[1]، ويساعدُ على هذا المعنى ضميرُ المتكلِّم من ﴿رَبِّيٓ﴾ الّذي يثيرُ في نفس الفَتيَين الشّوقَ إلى معرفة خصائصِ هذا الرّبِّ العظيم.

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رَبِّيٓ﴾:

شَرَفُ العبدِ وعَظَمَتُهُ في اندِراجِهِ في سِلكِ العبادِ المَربوبينَ لله سُبحانَهُ

أُضيفَ اسمُ الله (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المُتكلِّم (الياء) في قولِ الله سُبحانَهُ حكايةً لقولِ يوسُفَ ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾؛ تعظيمًا وتشريفًا للمضافِ إليه، فممّا تشرَّفَ به يُوسُفُ ﷺ وعَظُمَ به أنْ كانَ الله سُبحانَهُ ربًّا لَهُ ربوبيَّة خاصَّة بالإضافة إلى الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ لكلِّ الخَلق.

علَّةُ الفصلِ في: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾:

شبه كمال الاتّصال في المعنى

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها شبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، وهو: ما لِغَيرِكَ لا يُعَلِّمُهُ الله تعالى مِثلَ ما عَلَّمَكَ؟ أو لماذا علَّمكَ ربُّكَ تلكَ العلومَ البديعَةَ؟ فجاء الجوابُ على وجهِ التَّعليلِ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فبيَّنَ أنَّ سَبَبَ عِنايةِ الله سُبحانَهُ بِهِ أنَّهُ انفرَدَ في ذلكَ المكانِ بإقامةِ توحيدِ الله ﷻ، وتركِ مِلَّةِ أهلِ الكُفرِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/272.

دلالةُ التّأكيدِ بـ (إنَّ):

أُكِّدَ قولُ اللّه سُبحانَهُ حكايةً لقولِ يوسُفَ ﷺ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ بـ (إنَّ) اهتمامًا بمضمونِ الجملةِ؛ لتعلُّقِهَا بأعظمِ ما طُلِبَ مِنَ العبادِ التزامُهُ، وهو توحيدُ اللّه سُبحانَهُ والبراءَةُ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ، ولتنزيلِ المُخاطَبِ مَنزلةَ السّائِلِ؛ لأنَّ الجملةَ واردةٌ استئنافًا بيانيًّا.

تَوحيدُ اللهِ سُبحانَهُ أعظَمُ مطلوبٍ مِنَ العِبادِ

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لا يَلزَمُ مِنهُ دخولُهُ في تلك الملّةِ ثُمَّ اجتنابُها؛ إذِ التَّركُ كما يكونُ للدّاخِلِ في شيءٍ، ثمَّ يَنتقِلُ عنه إلى غيرِهِ، يكونُ كذلكَ لِمَن لَم يَدخُلْ فيه رأسًا. وليسَ الأمرُ كذلك مع يوسفَ ﷺ؛ لأنّ الأنبياءَ وُلِدوا على التّوحيد، وعلى هذا يكونُ المرادُ بالتّرك عدمَ التَّعرُّضِ للشّيء والالتفاتِ إليه بالمرّة، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ قد كان داخلاً فيه ثمّ تَركَه على الإيمان، أو أنّ المرادَ أنّ يوسفَ ﷺ كان في بيت العزيز، وهو بيتٌ كافرٌ، ويوسفُ ﷺ على الإيمان الصّحيح؛ لذلك صحَّ قولُهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ فلم يوافقْهُم على ما كانوا عليه[1].

لا يَلزَمُ في (التَّرْكِ) الدُّخولُ في أمرٍ، ثُمَّ الانتقالُ عنه إلى غيرِهِ

علّةُ التّعبيرِ بالتّرك:

جاءَ التَّعبيرُ في الآيةِ بالتَّركِ دونَ الاجتنابِ؛ تأنيسًا للفَتَيَينِ واستدراجًا لَهُما إلى تَركِهما ملَّةَ الكُفرِ[2].

إذ إنّ التّركَ قد أجرى مَجرَى التَّجنُّب من أوّل حالةٍ، فكانَ ذلك ترغيبًا لهما لأنْ يتركا تلك الملّةَ الّتي كانا فيها ليقتديَا بيوسفَ ﷺ[3].

لا نجاةَ إلّا في التّوحيدِ واتّباعِ النّبوّاتِ

(1) الدّقر، مختصر تفسير الخازن، ص: 813.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/245.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/431.

نكتةُ التَّعبير بالقومِ في: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾:

عُبِّرَ بالقوم في قولِ الله ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ لَفظَةَ القوم - وهي جماعةُ النَّاسِ - مُشعِرَةٌ بالقُوَّة؛ إذ إنَّ الرِّجالَ سُمُّوا قومًا؛ لكونِهم قوّامينَ على النِّساءِ في الأمورِ الّتي ليسَ للنِّساء أنْ يَقُمْنَ بها، فكانَ في التَّعبيرِ بالقومِ في الآيةِ الإيماءُ إلى أنَّ القومَ المتروكَةَ مِلَّتُهم أشدّاءُ وأقوياءُ على محاولة ما يُريدونَهُ، وهذا يُوَعِّرُ مخالفتَهُم، فكان في مخالَفتِهم، والحالُ هذه إشعارٌ بقُوَّةِ المُخالِفِ المُحِقِّ، وأنَّه لا يُؤثِرُ في سلامةِ ديانَته شيئًا، ولا يخافُ في سبيلِ ذلك أمرًا، وإنْ كانوا أقوياءَ على محاولةِ ما يريدون؛ فلذلك قدَروا على أذايَ وسَجني بعدَ رؤية الآياتِ الشّاهِدةِ لي[1].

بيانُ شدّةِ قومِ امرأة العزيز، وقوّتِهم على ما يريدون

براعةُ التَّعريض:

في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أرادَ بالقومِ الّذين لا يُؤمنونَ بالله تعالى الكنعانيِّينَ، وهُمُ الّذينَ نشأَ فيهم، وفي هذا تعريضٌ بالقِبطِ الّذين ضاهوهُم في الشِّركِ بالله سُبحانَهُ، والنُّكتَةُ في العدولِ عنِ التَّصريح إلى التَّعريض مُجانَبَةُ أن يُواجِهَهُم بالتَّشنيعِ عليهِم؛ لِئلّا يكونَ ذلك مُنفِّرًا عن قبولِهما مَوعظَتَهُ[2].

المُواجهةُ بالتَّشنيعِ مُنَفِّرٌ عن قبولِ المَوعِظةِ

دلالةُ التّعبيرِ بالجملة الخبريّة:

جاءَ التّعبيرُ بقولِه: ﴿تَرَكْتُ﴾ على وجه الإخبار، ولم يقُلْ: (اتركوا)؛ لأنّ صيغةَ الأمر والنّهي تبعثُ على الخوف والخَشية مِن أن ينزلَ بهُمُ العقابُ، وهذا ليسَ من دأب الأنبياءِ في بدء دعوتِهم، وفيه مُلاطفةٌ للفتيَين بأن يفهما منَ التّعبير بقولِه تعالى: ﴿تَرَكْتُ﴾ أنّه كان على دينِهما، فلم يكُنْ لِيعلمَ شيئًا، ولمّا ترَكَه علَّمَه الله تعالى، فيكونُ ذلك داعيًا لهما لتركِ ما هُم عليه لِيتعلّما ممّا علّمَه الله.

ملاطفةُ الفتيَين لتركِ الشّركِ والإقبالِ على توحيد الله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/272.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، والمرادُ استمرارُ النَّفي لا نفيُ الاستمرارِ، بقرينةِ ذمِّهم والتَّشنيعِ عليهم، والمرادُ: أنَّهم مُستمرُّونَ على عدَمِ الإيمانِ؛ لِما لَهُم مِنَ العَراقَةِ في الشِّرك[1].

الـعَـريـقُ في الشِّركِ، الموغِلُ فيه، مُستَمِرٌّ على عَدَمِ الإيمانِ

غرضُ تقييدِ الإيمانِ بـ﴿بِٱللَّهِ﴾:

قُيِّدَ فِعلُ الإيمانِ باسمِ الجلالةِ (اللهِ) في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا للإيمانِ الّذي كَفَرَ بهِ هؤلاءِ، وهذا يقتَضي شناعَةَ صنيعِهم، وبشاعَةَ فِعلَتِهم في تَركِهِمُ الإيمانَ بِمَن لهَ جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

شَناعَةُ صَنيعِ الكُفَّارِ، وبَشاعَةُ فِعلِهِم، في تَركِهِمُ الإيمانَ باللهِ ﷻ

علّةُ التَّصريحِ بعدمِ الإيمانِ بالآخرةِ:

في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ تلويحٌ إلى التَّحذيرِ مِن يومِ الحسابِ والجزاءِ الّذي لا يُغني فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، وذلك مُنبِّهٌ على أنَّ الكُفرَ باليومِ الآخِرِ قاطِعٌ عنِ العِلمِ وعن كُلِّ خيرٍ[2].

الـكُـفـرُ بـالـيـومِ الآخِرِ قاطِعٌ عَنِ العِلمِ، وعَن كُلِّ خَيرٍ

سِرُّ الاقتصارِ على الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ:

خُصَّ الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ بالذِّكرِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لنكَاتٍ:

إحداها: أنَّ الإيمانَ باللهِ سُبحانَهُ والبعثِ وما يَتبَعُه أعظمُ مقاصدِ العقيدةِ الإسلاميَّة، فكان الكُفرُ بها إخلالٌ بأعظمِ المقاصدِ الدّينيَّةِ.

ثانيها: أنَّ الإيمانَ باللهِ سُبحانَهُ على ما يَليقُ بجلالِ اللهِ ﷻ وعظمتِهِ؛ يَلزمُ منه الإيمان ببقيَّةِ الأركانِ؛ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُلِ والملائكةِ والقَدَرِ، والكُفرُ بهِ يستَلزِمُ الكُفرَ ببقيَّةِ الأركانِ.

الإيـمـانُ باللهِ ﷻ إيـمـانٌ بالمبدأِ، والإيمانُ بـالـيـومِ الآخِـرِ إيمانٌ بالمَعَادِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84.

ثالثُها: أنَّ الإيمانَ بمصيرِ العبادِ إلى اللهِ ﷻ يَلزمُ منه الاستعداد بالأعمال الصَّالحةِ؛ فهو مفتاحٌ لكلِّ خيرٍ، ولازِمُ ذلك أنَّ الكُفرَ بمآلِ العبادِ إلى اللهِ سُبحانَهُ يومَ القيامةِ يقتضي الإخلالَ بالأعمالِ الصّالحةِ، وهو مفتاحُ كلِّ شرٍّ.

رابعُها: أنَّ الإيمانَ باللهِ ﷻ إيمانٌ بالمبدأِ، والإيمانَ باليوم الآخر إيمانٌ بالمَعَادِ[1]؛ فَهُما الطَّرفانِ، وما سِوَاهما داخلٌ فيهما، على قاعدة أَنَّ البَينَ مُستَحضَرٌ في الطَّرفينِ، فمَن كفَرَ بهما كَفَرَ بالجميعِ.

فائدةُ تقديمِ الآخرةِ على لفظِ الكُفرِ:

الـكُـفـرُ بـالـيـومِ الآخِرِ مِفتاحُ كُلِّ شرٍّ وبلاءٍ

قُدِّمَ لفظُ الآخرةِ على لفظِ الكُفرِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، ولَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهُمْ كافرونَ بالآخرَةِ)؛ لأنَّ في تقديمِ الآخرةِ تأكيدًا لكُفرِهِم بالبَعثِ، وفي هذا التَّقديمِ أيضًا مزيدُ اهتمامٍ بالكُفرِ بالآخرةِ[2]؛ لكونِ الّذي لا يُؤمِنُ بالبعثِ لا يرجو مِن فِعلِ خيرٍ عاقبةً حسنَةً، ولا يخافُ مِن فِعلِ الشَّرِّ عاقبةً سيِّئَةً، فتَجري أعمالُهُ على وَفقِ ما تهواهُ نفسُهُ، وهذا مفتاحُ كلِّ شرٍّ.

نكتةُ تكرارِ الضَّميرِ ﴿وَهُم﴾:

الأدلَّـــةُ على ثُـبـوتِ الـيـومِ الآخِـرِ قاطِعةٌ، وبـراهـيـنُـهُ ساطِعةٌ

كُرِّرَ الضَّميرُ ﴿وَهُم﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لِنكاتٍ[3]:

إحداها: أنَّ في تكريرِهِ تنبيهًا على أنَّ هؤلاءِ مُختصُّونَ بالجهلِ، وأنَّ غيرَهُم وقَفوا على الهُدى ووُفِّقوا إليهِ.

ثانيها: أنَّ إنكارَهُمُ المَعادَ كانَ أشدَّ مِن إنكارِهِم للمبدأِ، فلأجلِ مبالغَتِهم في إنكارِ المَعادِ؛ أُكِّدَ الكلامُ بتَكرارِ الضَّميرِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3824.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3824.

ثالثُها: أنَّ في تكريرِ الضَّمير إيماءً إلى أنَّ صنيعَهُم ينبغي أن يُنكِرَهُ كلُّ مَن وقفَ عليهِ ولا يُصدِّقَه؛ وذلك لِما للآخرةِ منَ البراهينِ السّاطِعةِ والأدلَّةِ القاطِعةِ الّتي مَن تأمَّلَها أدنى تأمُّلٍ لا يتأتّى لَهُ إلّا الإقرارُ بها ومُجانَبَةُ إنكارِها والتَّكذيب بِها، ولعلّ إنكارَهُم للمَعادِ كان أشدَّ من إنكارِهم للمبدأ؛ فلأجلِ مُبالغتِهم في إنكار المَعادِ كرّرَ هذا اللّفظَ للتّأكيد[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

عُبِّرَ عَن كُفرِهم بالاسم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّهُم عريقونَ في التَّكذيبِ بالآخرةِ والسَّترِ لها[2]، مُستمِرُّونَ على ذلكَ، دائمونَ على لوازمِ ذلكَ من تَركِ العملِ الصَّالِحِ واقتحامِ العظائمِ والقبائحِ.

مِن لَوازمِ التَّكذيبِ بالآخرةِ اقتِحامُ القبائحِ، وتَركُ العملِ الصّالِحِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِلَّةُ والدّينُ:

بينَ المِلَّةِ والدّينِ فَرقانِ[3]: **أوَّلُهما**: أنَّ المِلَّةَ اسمٌ لجملةِ الشَّريعةِ، بخلافِ الدّينِ فهو اسمٌ لِما عليهِ كُلُّ واحدٍ من أهلِ الشَّريعةِ، ولذا يُقالُ: فلانٌ حسنُ الدّين، ولا يُقالُ حسنُ المِلَّةِ؛ بَل يُقالُ: هو مِن أهلِ المِلَّةِ، ويُطلَقُ الدِّينُ أيضًا على جملةِ الشَّريعةِ، كقولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19].

المِلَّةُ اسمٌ لِجملةِ الشَّريعةِ، ودينُنا خيرُ مِلّةٍ أُرسِلت للنّاس

ثانيهما: أنَّ المِلَّةَ لا تُضافُ إلّا إلى النَّبيِّ الّذي تُنسَبُ إليهِ، كقولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، ولا تكادُ توجدُ مُضافَةً إلى اللهِ ﷻ، ولا إلى آحادِ أُمَّةِ النَّبيِّ، وذكرَ العسكريُّ[4] أنَّ المِلَّةَ اسمٌ للشَّرائعِ مع الإقرارِ باللهِ سُبحانَهُ، بخلافِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84.
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.

الدّينِ، فهو ما يذهبُ إليه الإنسانُ مُعتقِدًا أنَّه يُقرِّبُهُ إلى اللّه تعالى، وإنْ لم يكُنْ فيه شرائعُ، وفرَّع على هذا أنَّ المِلّةَ أعمُّ منَ الدّين، فكلُّ مِلَّةٍ دينٌ، وليسَ كلُّ دينٍ ملَّةً؛ وذلك لأنَّ النَّصرانيَّةَ - مثلًا - ملَّةٌ، بخلاف الشِّركِ، فهو دينٌ، وليسَ ملَّةً، ثُمَّ لمّا كان هذا مُشكِلًا ذكَرَ بأنَّ اللَّفظتينِ تتقارَضانِ؛ بأن تُطلَقَ إحداهُما مَوضِعَ الأُخرى.

وهذا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ كُلَّ لفظةٍ لها دِلالَتُها الّتي تختصُّ بها، ولا يُعدَلُ عن هذا إلَّا لدليلٍ قويٍّ، ولا دليلَ يدلُّ على الفرقِ الّذي مالَ إليهِ؛ بل إنَّ ظاهرَ آيةِ يوسُفَ عليه السلام تردُّ هذا الفرقَ؛ فإنَّ فيها: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، فسمَّى ما هُم عليهِ ملَّة، مع التَّنصيص على عدمِ إيمانِهم باللّه ﷻ ولا باليومِ الآخِرِ، وهذا عينُ الشِّركِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»